

النقد السوسيولوجي لرواية "نوميديا" على ضوء نظرية لوسيان غولدمان في البنيوية التكوينية

وحيد خيري *

حميد ولي زاده (الكاتب المسؤول) **

حسن إسماعيل زاده ***

مهين حاجي زاده ****

الملخص

يهتم نقد علم الاجتماع الأدبي بالعلاقة بين الأدب والمجتمع ويحلل انعكاس التغيرات الاجتماعية في بنية العمل الأدبي وتُعدُّ نظرية البنيوية التكوينية إحدى المجموعات الفرعية في نقد علم الاجتماع الأدبي وهي تدرس العلاقة الثنائية بين الأدب وعلم الاجتماع في شكل البنية الدلالية للعمل الأدبي. ويُعدُّ لوسيان غولدمان من أشهر منظري هذا المنهج النقدي الذي يساعد الباحثين في الأدب بنموذجه على تحليل انعكاس حالة المجتمع ورؤية العالم للطبقة الاجتماعية في بنية الرواية. نتيجة للتطورات الواسعة التي حدثت في العالم العربي في العقود الماضية تتمتع الروايات العربية المعاصرة ببنية دلالية. يسرد الكاتب المغربي طارق بكارى في رواية "نوميديا"، برؤية نقدية، العديد من التطورات السياسية والاجتماعية والدينية والثقافية التي شهدها المغرب خلال العقود الماضية. يحاول البحث الحالي إظهار انعكاس التطورات السياسية والاجتماعية التي شهدها المغرب في نص هذه الرواية من خلال الاعتماد على نظرية البنيوية التكوينية عند لوسيان غولدمان. وتشير نتائج البحث إلى أن نص رواية نوميديا صدى للوضع الاجتماعي للمغرب، والخنق والدكتاتورية المهيمن على البلاد، وتأثير الاستعمار، والأنشطة التدميرية للمتطرفين الدينيين والخرافة في السبعينيات إلى التسعينيات. وهو يعكس روية العالم لطبقة من المثقفين اليساريين والاشتراكيين المغاربة الذين يعتمدون على وعيهم الطبقي لتحقيق الحرية والذين يتمردون على نظام الاستبداد في المغرب، لكن الدكتاتورية الحاكمة بالتواطؤ مع الاستعمار الغربي والمتطرفين الدينيين تمنعهم من تحقيق هذا الوعي. الكلمات الدلالية: النقد السوسيولوجي، البنيوية التكوينية، لوسيان غولدمان، طارق بكارى، نوميديا.

*. طالب الدكتوراه في قسم اللغة العربية وآدابها، بجامعة الشهيد مدني بأذربيجان، إيران

**. أستاذ مساعد في قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة الشهيد مدني بأذربيجان، إيران

drhvalizadeh@yahoo.com

***. أستاذ مشارك في قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة الشهيد مدني بأذربيجان، إيران

****. أستاذة في قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة الشهيد مدني بأذربيجان، إيران

تاريخ القبول: ١٤٤٦/٠٥/٠٣

تاريخ الاستلام: ١٤٤٦/٠١/٠٣

المقدمة

ترتبط الأعمال الأدبية ارتباطاً وثيقاً ببيئتها الاجتماعية، ويأخذ موضوع كل منها شكلاً خاصاً حسب الظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية والدينية. ولذلك فإن النص الأدبي هو انعكاس للعالم الحقيقي، حيث يمثّل المؤلف واقع المجتمع بمساعدة شخصيات الرواية، ويعبر أبعد من ذلك عن رؤيته للعالم ورؤية فئة اجتماعية كبيرة. فإن نقد علم الاجتماع الأدبي ينتقد ويحلل دور عوامل خارج النص في بناء النص. ومن النظريات المهمة في مجال نقد علم الاجتماع الأدبي نظرية البنيوية التكوينية للوسيان غولدمان، والتي يتم فيها فحص العلاقة بين العمل الأدبي والمجتمع على شكل مقولات منها الطبقة الاجتماعية، الصراع الطبقي، رؤية العالم، الوعي الطبقي والتشيع والبطل الإشكالي. فإن نظرية البنيوية التكوينية «كانت بمثابة رد فعل ضد البنيوية الصرفة التي قللت من أهمية دور المؤلف والسياق التاريخي في الإنتاج الأدبي.» (مكاريك، ١٣٨٤ش: ٣٥٧) يتم تحليل العلاقة بين بنية العمل الأدبي والسياق الظرفي للمجتمع والظروف المعيشية للمشاركين فيه. في ظل الظروف والتطورات السياسية والاجتماعية والثقافية الواسعة التي يشهدها العالم العربي، تُعدّ الموضوعات الاجتماعية من أهم الموضوعات التي يبدع حولها الأدباء العرب أعمالهم الروائية. طارق بكارى، كاتب مغربي شاب، يُعدّ من الروائيين الذين غلبت على أعمالهم الصبغة الواقعية والاجتماعية. بكارى يتناول في روايته "نوميديا" التي وصلت إلى القائمة القصيرة لجائزة البوكر العالمية العربية عام ٢٠١٦، قضايا مثل الاستعمار الناعم، والمواجهة بين الثقافة العربية الشرقية والثقافة الأوروبية الغربية، والاغتراب الثقافي، والتفكير التقليدي والخرافة والتطرف الديني وآثاره المدمرة على المجتمع المغربي. يحاول البحث الحالي دراسة سوسيولوجية لرواية نوميديا من خلال الاعتماد على نظرية غولدمان وتفسير انعكاس التطورات السياسية والاجتماعية والثقافية والدينية التي شهدها المجتمع المغربي في العقود السابقة في بنية هذه الرواية وتفسيرها.

أسئلة البحث

١. انطلاقاً من نظرية غولدمان كيف فسر طارق بكارى العلاقة بين البنى الاجتماعية

والأدبية في رواية "نوميديا"؟

٢. ما هي رؤية العالم الخفية في نص رواية نوميديا؟

٣. من خلال تأليف رواية "نوميديا"، ما هي حقائق المجتمع العربي والمغربى التى قدمها المؤلف؟

فرضيات البحث

١. يبدو أن بنية رواية نوميديا تشبه إلى حد كبير بنية المجتمع المغربى، وقد قام المؤلف بتمثيل العديد من الأحداث فى تاريخ المغرب المعاصر على شكل شخصيات فى هذه الرواية.

٢. نفترض أن بكارى يصور من خلال تصرفات مراد وشخصيات أخرى فى الرواية، رؤية العالم للطبقة الأكاديمية والفكرية الماركسية فى المغرب، والتى ينتمى إليها أيضاً.

٣. يمكن القول، فإن بكارى تعتبر المغرب لا تزال تابعة للغرب والاستعمار رغم استقلالها، ويعتبر الاستبداد وخيانة العوامل الداخلية عائقاً أمام تحقيق الوعى الوطنى.

أهمية البحث

بالنظر إلى الصحوة العربية الإسلامية التى شهدتها البلاد العربية فى العقدين الأخيرين، فإن دراسة رواية نوميديا استناداً إلى نظرية غولدمان فى البنيوية التكوينية يمكن أن تفتح نافذة على الوضع السياسى والاجتماعى والأيدىولوجى والاقتصادى للعالم العربى وخاصة المغرب، وتكشف الكثير من الحقائق.

خلفية البحث

ومن أهم الأبحاث التى تم إجراؤها عن أعمال طارق بكارى هى: ١- أطروحة «تحليل السلوك المتبادل لشخصيات رواية "القاتل الأشقر" فى ضوء نظرية الشخصية لإريك برن» جامعة رازى كرمانشاه، إعداد: إيمان قنبرى، ١٤٠٠ش، استنتج الكاتب

أن شخصيات رواية "القاتل الأشقر" في أغلب الأحيان، يتأثرن من البُعد الأبوى ولهذا السبب فإنهم يتصرفون مع بعضهم البعض على أساس عاطفي والقلق والخوف.

٢- مقالة «الهوية المهمشة في رواية "نوميديا" للروائي طارق بكارى» عادل حموشى، تمثلات، ٢٠٢٢م، المجلد ٦، العدد ٢، بحث في أزمة هوية «مراد» الشخصية الرئيسية في رواية نوميديا، وبينت تأثير وجهات النظر التقليدية في رفض المجهولين مثل مراد.

٣- مقالة «استطيقا الامتصاص والتحويل في الرواية العربية رواية "القاتل الأشقر" لطارق بكارى أنموذجاً»، محمد الساهل و طه حسين، جيل الدراسات الأدبية والفكرية، ٢٠١٩م، العدد ٥٦، يعتقد الكاتبان أن هذه الرواية تتفاعل مع قصص ألف ليلة وليلة، واستخدم المؤلف الأسلوب السردى المستخدم في ألف ليلة وليلة وأدخل تعديلات عليه لتصوير آلام الإنسان المعاصر ومثله العليا. ٤- مقالة «الهاجس الاغترابى في رواية "مرايا الجنرال" طارق بكارى»، عزيز بويغف، جيل الدراسات الأدبية والفكرية، ٢٠١٩م، العدد ٥٥، قد بحث انعكاس الاغتراب الوجودى والمكانى فى الأبعاد النفسية لشخصيات هذه الرواية. وتوصلت إلى نتيجة مفادها أن مرايا الجنرال هى رواية تستكشف حقيقة الإنسان وعلاقته بجوهره ونفسه الداخلية. لقد تناولت الأبحاث السابقة حول أعمال بكارى فى معظمها قضايا مثل التناص والنقد النفسى وأزمة هوية الشخصية الرئيسية فى الرواية وتغريب الشخصيات وتأثير البيئة فى خلق شخصيات مريضة وغريبة وبدرجة أقل قد اهتمت بالجوانب والقضايا الاجتماعية مثل الاستعمار وصراع التقاليد والحداثة وطبقة المرأة. إلا أن هذا البحث يعد أول بحث مستقل يتناول النقد السوسيولوجى لرواية نوميديا وفق نظرية البنيوية التكوينية، ويحلل العلاقة بين البنية الدلالية لهذه الرواية وبنية المجتمع المغربى.

معالجة الموضوع

النقد السوسيولوجى للعمل الأدبى له أصنافه، وتعتبر نظرية لوسيان غولدمان فى البنيوية التكوينية من أشهر النظريات وأكثرها دقة، وهى فى حد ذاتها مقسمة إلى أجزاء.

نظرية لوسيان غولدمان فى البنيوية التكوينية

قام لوسيان غولدمان بتوسيع إطار البنيوية التكوينية من خلال تقديم بعض نظرياته و قد تأثر فى نظريته هذه بالأفكار الماركسية ويستخدمها فى النقد الاجتماعى للأعمال الأدبية وخاصة الرواية. «البنيوية التكوينية هى نهج يركز على دراسة الظروف والعمليات الاجتماعية المتعلقة بإنشاء الأدب الماركسى والمستوحى من لوكاش ويتم من خلالها استخدام النص الأدبى كأداة للتحقيق السوسيولوجى لفحص الشخصية الاجتماعية التاريخية والدلالات الموضوعية للحياة العاطفية والفكرية للشخص المبدع.» (غلدمن، ١٣٧٧ش: ٢٠١) لذا فإن البنيوية توضح الطريق لبدء وإنشاء نظرية جماعية وموقف وأسلوب فكرى عبر التاريخ تحاول بنيوية غولدمان «إعادة القيمة والمصادقية للعمل، دون قطع علاقته بالمجتمع والتاريخ.» (غولدمان و الآخرون، ١٩٨٦م: ٧) ولذلك فإن كل عمل أدبى له خلفية تاريخية تتم فيها مراجعة القضايا التى حدثت فى المراحل التاريخية وفى المجتمع ويمكن إعادة إنتاجها فى المستقبل والمراحل اللاحقة. يعتبر غولدمان العمل الأدبى وصفاً للظروف المعيشية لطبقة من المجتمع. ويرى أن «المبدعين الحقيقيين للأعمال الثقافية هم فئات اجتماعية، وليس أفراداً.» (غلدمن، ١٣٨١ش: ١٣) يعنى أن العمل الأدبى لا يعبر فقط عن مشاعر المؤلف الشخصية. فإن «كل عمل فنى أصيل هو تعبير عن رؤية جماعية موحدة يكون المؤلف نفسه جزءاً منها.» (راودراد، ١٣٩٤ش: ٩٨) فالكاتب، باعتباره عضواً فى المجتمع الذى يعيش فيه، يعبر عن أفكار ومشاعر أهله من خلال خلق نصه الأدبى. وبهذه الطريقة «يعطى الإنسان إجابة ذات معنى وفقاً للوضع القائم ويحاول إقامة توازن بين المؤلف والمجتمع.» (ياسكادى، ١٣٧٦ش: ٥٦) يعرض المؤلف فى عمله رؤية العالم العامة لفئة من المجتمع تتمتع بالتضامن الفكرى وعادة ما يكون له توجه نقدى تجاه الخطاب الرسمى والحاكم.

تنقسم نظرية غولدمان إلى قسمين رئيسيين: الإدراك والتفسير. عند الإدراك، يتم تحليل خصائص العمل الهادف، ووصف العلاقة بين البنية الدلالية وبنية المجتمع. «يبدو الإدراك كأسلوب عقلى يكمن قدر الإمكان فى وصف البنية الدلالية؛ أى وصف العلاقات التى تكون البناء الدلالى، مع الالتزام بالنص، دون تجاوز حدوده.» (غولدمان،

١٩٨١م: ١٦) يتم في الإدراك فحص العلاقات بين العناصر المكونة للعمل الأدبي، والتي تتسبب في ظهور البنية الدلالية للعمل. تشمل هذه المكونات الطبقة الاجتماعية، والصراع الطبقي، ورؤية العالم، والوعي الطبقي، والتشويؤ، والبطل الإشكالي. لكن في التفسير يتم بحث انعكاس ظروف المجتمع للعالم الواقعي في البنية الدلالية للرواية التي يمثل فيها المؤلف واقع المجتمع مستعينا بأحداث الرواية وتصرفات شخصياتها. «فإن التفسير؛ عبارة عن إدراج بنية دلالية في بنية أخرى أكبر، ليكون عنصراً مساهماً في تكوينها، وبعبارة أخرى، يعنى توضيح البنية الذهنية للنص في ضوء العناصر الخارجية.» (شحيد، ١٩٨٢م: ٨٤) ففي التفسير يتم تحليل البنية الداخلية للنص مع بنيته الخارجية وعالم الواقع. ويرى غولدمان أن «الإدراك والتفسير ليسا عمليتين ذهنييتين مختلفتين، بل هما يعدّان عملية واحدة تؤدي إلى بيانات مختلفة. فيكفي أن نجعل البنية الشاملة موضوعاً للدراسة، بحيث يصبح ما كان تفسيراً فهماً، وبنفس الطريقة يجب أن يعود البحث التفسيري أيضاً إلى بنية أوسع.» (Godlman, 1970: 62) الإدراك هو مقدمة لشرح نص العمل والباحث في الإدراك، من خلال دراسة نص الرواية، يستخرج منه البنية الدلالية وفي التفسير ينتقد علاقة هذه البنية الدلالية ببنية المجتمع والأحداث التاريخية والسياسية.

ملخص الرواية

رواية "نوميديا" تروى قصة بطل الرواية "أوداد". هو طفل ضال تحت وصاية "إمخند" وبعد أن قضى طفولته بسبب عداوة زوجة "إمخند" وأمه، يتم إسناده إلى شخص يدعى "حسين" ويغير اسمه إلى "مراد". لكن بعد فترة وبسبب عداوة زوجة حسين وبناته يطرد من المنزل ويواجه مصاعب وينشر آرائه كثيرة حتى التقى بمصطفى وهو مناضل ثوري وماركسي وبمساعده يذهب إلى فرنسا لمواصلة تعليمه الماركسية وهو مهتد من قبل الجماعات الإسلامية المتطرفة. يُقتل "مصطفى" خلال تفجير إرهابي، وتحمل من مراد "خولة" الفتاة التي كانت على علاقة غير مشروعة مع مراد قبل سفره إلى فرنسا، وتنتحر وتموت. تترك هذه الأحداث أثرها السلبي على مراد، فيصاب بالاكئاب ويخضع

للعلاج تحت إشراف طبيب نفسى يدعى "بن هاشم"، الذى يأمره بالعودة إلى مسقط رأسه فى قرية "إغرم". وبعد شراء فندق فى إغرم، يتعرف على "جوليا"، وهى فتاة فرنسية تبحث على ما يبدو عن ثقافة الدول الشرقية والعرب، لكنها فى الحقيقة كاتبة مشهورة تبحث عن شخصية عربية شرقية خائبة الأمل لخلق روايتها الجديدة. ويكون خلف ستار معرفتها بمراد، الدكتور بن هاشم الذى يعطى جوليا معلومات حياة مراد الشخصية مقابل رسوم. وهكذا تدخل جوليا حياة مراد وتقيم معه علاقة غير شرعية لتحقيق أهدافها وتخرج قصة حياته من فمه. بعد أن يكتشف مراد نوايا جوليا، يزداد قلقه النفسى ويعانى من الهلوسة تحت الضغط النفسى الناجم عن موت خولة وتهديد الإرهابيين وخيانة جوليا. وفى جو سرىالى، يلتقى بفتاة أسطورية وجميلة وخرساء يسميها مراد "نوميديا"، وهى ملكة مملكة أمازيغية القديمة. وينبهر بها مراد لدرجة أنه يراها أمام عينيه فى عالم النوم واليقظة. وفى نهاية الرواية وهو يبحث عن نوميديا فى أعالي الجبل والدم يسيل من أنفه حتى يموت.

تحليل رواية نوميديا على أساس نظرية غولدمان

يتم تحليل رواية نوميديا استناداً إلى مبادئ نظرية غولدمان البنيوية التكوينية على مستويين من الإدراك والتفسير، ويتم التعبير عن العلاقة بين بنية المجتمع المغربى والبنية الدلالية لهذه الرواية.

مستوى الإدراك

وينقسم مستوى الإدراك إلى أقسام فرعية يتم فيها انتقاد الطبقة الاجتماعية، والصراع الطبقي، ورؤية العالم، والوعى الطبقي، والتشويء، والبطل الإشكالى. ولذلك، يتم أولاً فحص مكوّنات رواية نوميديا استناداً إلى نظرية غولدمان فى باب الإدراك.

الطبقة الاجتماعية

تتكون جميع المجتمعات الحديثة من المجموعات والوحدات الاجتماعية المترابطة حتماً. «إنّ الطبقة الاجتماعية تتكون من مجموعة أفراد يشغلون نفس المواقع فى هيكل

العلاقات الاجتماعية للإنتاج، والعلاقات التي تنشأ في سياق التنظيم الاجتماعي للعلاقات الاقتصادية، وتحديدًا العلاقات الاقتصادية.» (اليسوى، ١٩٨٩م: ١ و ٦) التفاعلات بين الطبقات تحدد الثقافة الكلية للمجتمع وأسلوب إدارته السياسية والاجتماعية والاقتصادية والأيدولوجية.

في رواية نوميديا هناك طبقات اجتماعية مختلفة، بعضها يتفاعل وبعضها يتعارض في السياسة والثقافة والدين. إن الطبقة المثقفة ذات التوجهات اليسارية والثورية، والسياسيين والنظام الحاكم، والمتطرفين الدينيين، والطبقة الفقيرة المكوّنة من العمال والفلاحين والسذج تحت تأثير الثقافة التقليدية والخرافات، هي فئات اجتماعية مختلفة في المغرب تتواجد في الصراع أو التفاعل مع بعضها البعض. في هذه الرواية، الطبقة الفكرية الماركسية في مواجهة وصراع مع النظام الحاكم من جهة ومع المتطرفين الدينيين من جهة أخرى، كما أنها تتعرض لضغوط الثقافة التقليدية التي تحكم المجتمع الرفي المغربي. ويصوّر بكارى الوضع السياسى والاجتماعى والاقتصادى والثقافى والأيدولوجى للمجتمع المغربى من خلال تصرفات شخصيات الرواية وعلاقة مراد بمصطفى وعائلة أمحمد وحسين وسكان أغرم، وكذلك نساء الرواية وهنّ جوليا ونضال وخولة ونوميديا، وبهذا يعبر عن صوت مختلف الخطابات في هذا المجتمع.

الصراع الطبقي

يتكون كل مجتمع من طبقات اجتماعية مختلفة، وقد تهيم عليها العلاقات العليا والدنيا. «ينشأ الصراع الطبقي عندما يتكون المجتمع من مجموعات منفصلة، تسعى كل منها إلى تحقيق مصالحها الخاصة. إن وجود مصالح منفصلة يؤدي إلى تعارض القدرات والإمكانيات التي تستفيد منها فئات معينة قبل غيرها.» (كيدنز، ١٣٩٠ش: ٣٣) تنمو بعض المجموعات وتؤثر على مجموعات أخرى بأفعالها، ويزداد التنافس بين المجموعات ويحاول بعضها القضاء على المجموعات الأخرى.

في المجتمع المغربي الدكتاتوري، تعمل كل الفئات ضد الاتجاه الفكرى الماركسى، وتعتبر الحكومة والمتطرفون الدينيون ألد أعداء هذا الاتجاه، الذين يهاجمون الجامعة

بوحشية، ويقمعون الاحتجاجات ويعتقلون ويقتلون الطلاب: «تذكرتُ بأسف جامعة «ظهر المهرارز» ومواجهتنا الدامية مع النظام و الظلام، كم كبرنا وكم ضعنا فى دروب الحياة الأشد حلكة وتأزماً!» (بكارى، ٢٠١٥م: ٢٢٩)

وتحاول الحكومة والمتطرفون كفريق مشترك تطوير دكتاتوريتهم من خلال قمع احتجاجات الطلاب والطبقة المثقفة والواعية: «رأيتُ سيارات الشرطة تطاردنا من سفوح وسلان إلى فضاءات باب الفتوح، وتنشلنا واحداً واحداً مخلفين الساحة فى يد القتلة الحقيقيين، رأيتهُم بلحاهم المسبلة كالقردة يقتحمون حلكة الطرق السرى فى ليل الجامعة.» (المصدر نفسه: ٢٧٣)

ويظهر هذا التحالف خوف أعداء الطبقة المثقفة الذين يرون مصالحهم فى الخطر، ورغم اختلافهم إلا أنهم يصبحون العدو المشترك للطبقة المثقفة. وهذا التضامن بين مختلف الطبقات الاجتماعية هو نتيجة لتضارب المصالح الذى نشأ بينها وبين الطبقة الناقدة بالمغرب. طبقة اجتماعية أخرى تتعارض مع معتقدات مراد الحداثية هى سكان إغرم التقليديون الخرافيون، الذين كانوا اعداء له منذ طفولته وخلقوا أساطير حول كونه، وعلى رأس هؤلاء الأعداء والدة أحمد وزوجته وفتيه القرية. ويقول عنه فتية القرية: «صار لسان الشيخ وزبائنه أحد من السيف، قال بأن الموت ابتلع روح العجوز لما فشل فى أخذ أوداد، وأن لعنته لن تكتفى بروح العجوز، بل ستسعى كحية حتى تبتلع القرية كلها.» (المصدر نفسه: ٦٣)

نتيجة هذه الخرافات وتحت ضغوط سكان القرية، يعهد أحمد بمراد إلى حسين الذى يعيش فى المدينة، حيث يواجه أيضاً عداء زوجة حسين ويتجول فى الشوارع. لذلك، من خلال انتقاد أفكار الإغرميين المتخلفة، يعتبر بكارى الجهل والثقافة التقليدية سبب عدم تقدم المغرب، وأن التعصب الدموى والعنصرية يتسببان فى نبذ الفقراء مثل مراد من المجتمع ويلحق بهم العديد من الأضرار النفسية والاجتماعية.

رؤية العالم

إن رؤية العالم توضح طريقة التفكير والإطار الفكرى لمجموعة من الناس فى

المجتمع. فى التعريف العام، تعتبر رؤية العالم «نظام أفكار لمجموعة من الأشخاص الذين يعيشون فى ظروف اقتصادية واجتماعية معينة.» (غازى الجابرى، ٢٠١١م: ١٣٧) هذه رؤية العالم ليس لها بعد فردى، بل هى فكر عام ناشئ عن الحكمة الجماعية. من وجهة نظر غولدمان، «ليست عبقرية مؤلف العمل هى التى تخلق العمل؛ بل البناء الذهنى الطبقي هو الذى يخلق التأثير. أى أن الطبقة الاجتماعية لديها نوع من رؤية العالم التى تخلق العمل الأدبى.» (شميسا، ١٣٨٦ش: ٢٩٦) ولذلك فإن الرواية هى نتاج موقف شامل يعبر من خلاله المؤلف عن المشاعر الطبقية.

ويضع بكارى رواية نوميديا فى خدمة رؤية العالم للطبقة المثقفة فى المجتمع المغربى، ويعبر عن مثلها ومعاناتها. مراد، بطل الرواية، ذو ميول ماركسية وهو تعرف من خلال مصطفى وخولة على أفكار الماركس وهذه الأفكار تطورت فيه منذ بداية أيام دراسته: «وفى السنة الثانية، بدأت أتغلغل داخلها وأميط اللثام من أوجاعها، وسحبتنى مأساتها إلى اليسار الجامعى. صحيح أنني كنت على أتم الجاهزية للالتحاق بهذا الفصل، وذلك بحكم ما اطلعت عليه فى مكتبة مصطفى، هذا الملاك الذى آوانى من وحشة الأزقة، كان أحد المناضلين السبعينيين الأشد تمسكاً باليسار؛ ورغم أنه كان يتحاشى استمالتى لمذهبه السياسى، إلا أنني وجدت فى كتبه سلوة.» (بكارى، ٢٠١٥م: ٤٧)

الموضوع الرئيسى لهذه الرواية هو نقد التطرف الدينى والآثار المدمرة للتقليدية والخرافة، ويظهر بكارى صراع فكرتين متعارضتين. فهو من ناحية يعبر عن رؤية العالم للطبقة المثقفة الماركسية فى المجتمع، بمن فيهم مراد ومصطفى ونضال، ومن ناحية أخرى، يصف أفعال المتطرفين المدمرة: «كان ماضينا النضالى يصحو داخل رويداً رويداً، تذكرتُ بأسف جامعة «ظهر المراز» ومواجهتنا الدامية مع النظام والظلام، كم كبرنا وكم ضعنا فى دروب الحياة الأشد حلكة وتأزماً!» (المصدر نفسه: ٢٢٩)

مراد المتواجد فى أوروبا منذ فترة يكره الخرافات والتفكير التقليدى والقبلى ويعتبرها سبب تخلف الدول العربية: «قلتُ لبنهاشم، وأنا مستلق على أريكة عيادته: -المدينة أختارتنا، والقبيلة والتفكير القبلى لايزالان داخلنا.» (المصدر نفسه: ١٤٥)

"المدينة" رمز لحضارة جديدة وعالم متقدم مليئ بالتقنيات الجديدة، و"القبيلة" هى

الدوغمائية والتقليدية العمياء التي تمنع التغيير الإيجابي في المجتمعات العربية. كلمات مراد هذه هي انعكاس رؤية العالم للطبقة الناقدة حول ضرورة التحديث ورفض بعض التقاليد الفاسدة التي لا تتسجم مع متطلبات العصر الحاضر.

يتناول بكارى في هذه الرواية قضية الاستعمار ومحاوله خلق التفرغ بين المغاربة. جوليا، هي كناية عن العالم الغربى، الذى يقترب من مراد بهدف دراسة ثقافة الشرق، لكن فى الحقيقة هدفها هو استغلال عواطفه لخلق شخصيته الروائية. جوليا هي رمز للثقافة الغربية والنظام الرأسمالى الذى يحول الناس من مجتمعات العالم الثالث إلى أشياء ويستخدمهم لمصالحه الخاصة: «تذكرنا معاً أول ما قاد المودة بيننا، فاندفعت تردد كلمة واحدة: الصدفة! ترى أية صدفة هذه التي تنتهى بملقى النفسى فى حقيبتك؟ لاشك أنها كانت تخطط لكل شىء، وحتى (حبها) الذى لا تنفك تصرّح به وبروعته وعظمتها! لاشك أن هذا الحب زائف.» (المصدر نفسه: ١٩٥)

ويعبر بكارى فى كلمات مراد عن رؤية العالم والموقف النقدى للمثقفين المغاربة تجاه تأثير الاستعمار استغلاله من المجتمعات الثالثة. وهو ينتقد سذاجة المغاربة الذين يسهل خداعهم بسلوكيات الغربيين التي تبدو ودية، وهم الذين يمارسون السلطة على المغاربة والدول الأخرى من العالم الثالث باعتبارهم الطبقة العليا وينظرون إليهم كأداة.

الوعى الطبقي

ينقسم الوعى الطبقي نفسه إلى ثلاثة أجزاء أكثر تفصيلاً، أى الوعى الحقيقى، والوعى الممكن، والوعى الزائف. الوعى الحقيقى، ويسمى أيضاً الوعى الحالى، هو أدنى مستوى من الوعى الطبقي. «الوعى الحقيقى هو إدراك فئة من المجتمع لوضعها الحالى ووصف هذا الوضع دون إجراء أى تغيير.» (لحمدانى، ١٩٩٠م: ٦٩) وهذا الوعى هو معرفة الإنسان الأولية بمحيطه ولا يؤدى إلى تغييرات جذرية وهو تكرار أفكار الماضى.

وصل الناس فى المجتمع المغربى إلى مستوى من الوعى بمجتمعهم ووضع الاقتصادى والاجتماعى والسياسى، لكن هذا الوعى هو المعرفة الساكنة والحالية، أسسها الماضى، ولكن ومع مرور الوقت، تم نسيان الزمن ولم يؤد إلى تغييرات إيجابية: «كأن الحقائق

تنضج وتستوى لا تنتظر من أن تبحث عنها، بل تتقدم هي نحوك، وقد يكون الأمر غير هذا تماماً، قد تكون الحقيقة سلسلة صدف تتعري الواحدة تلو الأخرى، لكن أيّاً كانت هذه القوة التي تقتادنا نحو اكتشاف حقيقة ما، فإن أهميتها سرعان ما تتبدد، بل ويغيب السؤال بشأنها ما إن نكون حفاة أمام أمر اكتشافه أو نكتشف أننا كنا مغدورين به، وأنه كان يعيش معنا، وربما في دمننا دون أن نعي ذلك.» (بكارى، ٢٠١٥م: ١٧٠)

ولذلك فإن تراجع عواطف المغاربة ومشاعرهم الثورية والاستهتار وروتين حياتهم وغياب المطالب والاستحقاقات سيبقى وعيهم الطبقي نظرياً فقط وفي الوقت الحاضر ولن يوفر أرضية لتغييرات مهمة في هيكل الإدارة الكلية في البلاد.

لكن الوعي الممكن يرتبط بالبصيرة، ويقول غولدمان في تعريفه: «أعلى مستوى من الوعي هو طبقة اجتماعية يمكنها تكوين رؤية عالم منتظمة واجتماعية من أجل التعبير بها عن الآراء والأفكار الدينية والفلسفية والأدبية والفنية.» (غولدمان، ١٩٩٦م: ١١٦) لذا يعتمد الإنسان على فهمه العميق لحالة المجتمع وفهمه لضرورة التغيير والتحول في البنية المختلة في المجتمع لهدم هذه البنية. «هذا النوع من الوعي مرتبط بالمستقبل ويؤدى إلى التغيير.» (بحرى، ٢٠٠٥م: ٩٥)

كانت تركيز الحركة المثقفة المغربية الأكثر على الاحتجاجات السلمية ولم تتجه نحو الصراعات المسلحة للدفاع عن أهدافها ومثلها العليا. وقد ينتقد مراد هذا الموضوع، ويرى أن الطلاب يجب أن يلجأوا إلى الكفاح المسلح لإحداث تغييرات إيجابية «تُرى أكان يجدر بنا أن نتأبط الكلاشينكوف بدل كُتبنا لنجد للحلم متسعاً في بلاد أضيق منه؟!» (بكارى، ٢٠١٥م: ٢٤٠)

وكأن بكارى يعبر عن موقفه النقدي من أسلوب سلوك الحراك الثورى مع عنف الحكومة والمتطرفين بكلمات مراد، ويعتبر أن التركيز على الشعارات بدلاً من الفعل عامل في إضعاف الثورة وتعزيز جبهة المعارضة.

الوعي الزائف يبعد الإنسان عن الطريق الصحيح وإدراك الوعي الممكن. «إن الوعي الكاذب ينبع من موقف خادع غير قادر على إدراك الواقع، ونظرته للمجتمع وأحواله الاقتصادية والاجتماعية محدودة وغامضة وغير مؤكدة. لذلك ينتبه الإنسان

إلى الأشياء التي تُلْهيه عن الواقع؛ ونتيجة لذلك، يضطر إلى الهروب من الواقع والتوجه إلى أحلام كاذبة ومستحيلة، ولا يستطيع فهم العالم من حوله وحياته. «(جلالي و الآخرون، ١٤٠١ش: ١٠٢) ولذلك فإن الوعي الزائف يبعد الإنسان عن الواقعية والفهم الدقيق لحالة المجتمع.

تسببت الدعاية السلبية التي استخدمتها الحكومة ضد الحركة المثقفة في أن يصبح عامة الناس، من المتطرفين الدينيين إلى السوقيين وأصحاب المتاجر والبقالين وبائعي الخضار والباعة المتجولين، أعداءً دمويين للجامعة والعلم والتفكير التحرري. لذا، فمن خلال خلق الرعب في البيئة العلمية، تعمل الحكومة على تهميش الوعي المثالي: «رأيتُ الساحة الجامعية التي غطتها دماء الطلبة قد استحالت إلى رصيف هامشيّ يكتظُّ بلحاهم، رأيتُ انزالاتهم في تلك المرحلة، رأيتُ جزّارين وبقّالين وبائعي خضرة وبائعين متجولين غرباء عن الجسم الطلابي، يمشون كالديكة في الساحة الجامعية التي كانت إلى الأمس القريب معقلاً للمجد والنضال، يتأبطون سواطيرهم وسلاسلهم .. كم أسأوا إلى الجامعة!» (بكارى، ٢٠١٥م: ٢٧٠)

مثل هذه الأحداث المريعة تنشر روح اليأس بين الأكاديميين وتضعف تدفق الثورة والخطاب النقدي. إن النظام الاستبدادي الحاكم في المغرب، وخونة الداخل والمتطرفين من جهة، والاستعمار الغربي من جهة أخرى، يستخدمون كل أنواع الأدوات ضد الوعي المثالي للمغاربة. وبقمع الدعوة للحرية والإصلاح للمغاربة، فإنهم يضعفون ثقتهم بأنفسهم ويؤخرون تحقيق الوعي الممكن.

التشبيؤ

التشبيؤ هو مفهوم واسع يكتسب معاني مختلفة في الفن والاقتصاد والثقافة والمجتمع. ويعتبر غولدمان ذلك عبادة وثنية ونزعة متطرفة نحو القيم المادية، وهو ما يعنى أن «هيمنة العالم الرأسمالي على الناس هي بحيث يصبحون أشياء ويقتصرون على عالم سلبي، كما تتعرض العلاقات والمؤسسات الإنسانية لنفس الدمار وخسارة القيمة.» (كُلْدَمَن، ١٣٦٩ش: ٣٠٥) يشجع النظام الرأسمالي من خلال المنافسة بين الناس

وسيطرة الثقافة الاستهلاكية، أفراد المجتمع على استغلال الآخرين.

يبين بكارى أن الناس فى الدول العربية يتنافسون مع بعضهم البعض تحت تأثير دعاية الرأسمالية، وفى هذه الدورة، يحكم المال ونظام العملة على العلاقات بين المشاركين فى المجتمع ويشجعان على استغلال الآخرين. فإن الناس ومشاعرهم وأجسادهم وأفكارهم يصبحون أشياء ويعاملون كأنهم جماد. ومن أوضح مظاهر التشيؤ فى رواية "نوميديا" تظهر فى العلاقة بين جوليا ومراد. تدخل جوليا فى علاقة عاطفية مع مراد وتخرج قصة حياته من فمه، بمعرفة مرض مراد النفسى من خلال طبيبها النفسى وبهدف خلق شخصية روايتها الجديدة: «أما أنا، فإنّ غواية الكتابة عن هذا الفضاء الغامض الذى كان إلى الأمس مستعمرة فرنسيّة هى السبب الذى دفعنى إلى المجئ إلى هنا. ولأنتى جئت إلى المغرب بهدف لبحث عن مادّة روائية، ولأنّ منافذى للناس كانت شبه معدومة، ذلك أن اللغة لا تسعفهم، فإنّنى لم أجد أمامى سواء أبواب الأطباء النفسانيين... ولأنتى سبق وصرحتُ أنّ كلّ شيء قابل للبيع، فإنّنى لم أجد صعوبة فى شراء ضمير أحدهم.» (بكارى، ٢٠١٥م: ٢٤٨-٢٤٩)

النظام الرأسمالى والقوة التى تتمتع بها الدول الاستعمارية تسمح لها باستخدام أشخاص من مجتمعات متخلفة كأشياء وانتهاك خصوصياتهم؛ وبنفس الطريقة، وبسبب نفوذ بلادها فى المغرب، تستخدم جوليا جسد مراد وروحه بسهولة كموضوع وأداة لمصلحتها الخاصة.

يرى بكارى أن الناس يصبحون عبيدا خالصين للمال والنظام الرأسمالى بسبب احتياجاتهم المادية؛ لأنهم يلجأون إلى المال لتلبية احتياجاتهم، ويصبح هذا النوع من الأشخاص سلعة تخضع لسيطرة المال والنظام الرأسمالى ويميل نحو الاستهلاك والقيم الكمية. وبكلمات مراد يظهر تشيؤ الإنسان المعاصر: «كم أنا الآن فى حاجة إلى سيجارة ورشفة من زجاجة خمر... لا ...، بل أحتاج الآن أكثر إلى الأكل، أنا جائع. فى النهاية جوع البطن قاسٍ، وإن جعتُ صرْتُ فى حاجة إلى شديق خبز أسد به رمقى، وإذا أردتُ أن أحقق ذلك لابدّ أن أعمل، الأمر الذى سيجعلنى عرضة للاستغلال الذى لابدّ أن يمارسه مالك وسائل الإنتاج... إننى بروتيتارى فى حاجة إلى ثورة من أجل

التحرر من ربكة الملاك...» (المصدر نفسه: ٣٦١-٣٦٢)

في هذه الدورة يكون كل من البائع والمشتري عبيدين للمال ويخدمان النظام الرأسمالي، ويعترف مراد بهذه المشكلة ويقف في مواجهتها بسبب التفكير الماركسي. إن كلمات مراد المناهضة للإمبريالية، هي انعكاس لأفكار الطبقة المثقفة الماركسية المغربية التي ترى طريق تقدم الدول العربية بعيدا عن أسس النظام الرأسمالي الذي يستغل من الناس لتقدم أهدافه.

البطل الإشكالي

البطل الإشكالي، والذي تمت ترجمته على أنه بطل إشكالي أو صانع المشاكل، هو أحد المفاهيم الرئيسية من وجهة نظر لوكاش وغولدمان. «يعتبر غولدمان أن بطل الرواية هو شخص إشكالي، في مجتمع تكون فيه القيم الاستهلاكية مثل السلع ورأس المال ذات أهمية أساسية، فهو يبحث عن القيم النوعية والأصيلة والحقيقية مثل الحرية والعدالة والحب، ولذلك فإن العزلة والوحدة والانطواء هي الملاذ الوحيد للشخص الإشكالي في المجتمع الحديث.» (كُلْدَمَنْ، ١٣٧٧ش: ٦٦) وبسبب سيطرة الوعي الزائف على الوعي الممكن تواجه هذه الشخصية الفشل في أهدافها ومثلها العليا وتعاني من الإحباط.

مراد الشخصية الرئيسية في رواية "نوميديا"، بطل إشكالي يواجه الفشل في تحقيق أهدافه ومثله العليا بسبب العوامل البيئية وظروف المجتمع الخناق والنزوح والتشرد والفقر، ومواجهة الاستبداد الداخلي والاستعمار والثقافة التقليدية وغير الفعالة، والتطرف الديني: «لقد كانت أحلام المستقبل كل ما كان يدفعني إلى قبول الحياة، لكن الآن، بعد أن استهلكْتُ كل تلك الأحلام، وجدتُ أنني كنت أعيش خديعة كبرى وأنا أطارِد سراب المستقبل.» (بكارى، ٢٠١٥م: ٢٣٨)

يسعى مراد لتحقيق حياة حقيقية ويتحمل كل المصاعب على أمل أن يستمتع في المستقبل بلحظات حياته ويتقدم على المستوى الشخصي والاجتماعي ويصبح إنساناً منتجاً ومفيداً، لكنه يواجه الواقع المرير في المجتمع المغربي الدكتاتوري ويصبح قانطاً

وعبثاً: «ولدتُ مهزوماً... ولدتُ لأجد الحياة، وقد ضربت حولي متاريس الخيبة. وجدتُ في مقارعتها بطولاً، لكنّها كانت بطولة مجهفة. فبحثتُ بالعلم والمعرفة عن بطولة زائفة وانهزمت، لأنّ كلّ ما فعلته المعرفة، أنّها عمّقت فهمي لمأساتي..» (المصدر نفسه: ١٨٢) هو الذي يخوض معركة حياته ومصاعبه، رغم أنه يصل إلى أعلى مستوى من الناحية العلمية ويصبح ثرياً، ولكن بسبب اهتمامه بالقيم النوعية مثل الحرية وإرساء العدالة الاجتماعية ومحاربة الجهل فهو معارض للتيار الحاكم ومعارضوه يدفعونه إلى هامش المجتمع فيصبح وحيداً وعابثاً: «آه ما جدوى حياتك يا مراد، وأنت منذ البدايات تركض في حلقة مفرغة وتسبح ضدّ التيار.» (المصدر نفسه: ١٥)

هذا النهج الجريء والمثالي لمراد، يجعله يواجه قضايا وحقائق الحياة التي لا يستطيع فهمها بشكل صحيح. لذلك يصبح وحيداً ومكتئباً وبلا هدف وغير متحمس. ومن خلال وصف حياة مراد المضطربة وإخفاقاته، يبين بكارى المحاولة الفاشلة للوسط الفكري في المغرب لإحداث تغييرات جوهرية في البلاد، حيث أن الحكومة بالديكتاتورية ونشر الشعور باليأس همشت الصحة الوطنية.

مستوى التفسير

في هذا القسم، يتم تحليل العلاقة بين البنية الدلالية لرواية نوميديا وبنية المجتمع المغربي وواقعه الثقافي والسياسي والاجتماعي.

انعكاس التطورات السياسية التي شهدتها المغرب خلال فترة السبعينيات والتسعينيات في رواية نوميديا

يتجلى الوضع السياسي للمغرب في مستويين: دولي واستعماري، ومحلي ودكتاتوري. لقد ظلت المغرب، وهي مستعمرة فرنسية، تحت تأثير الاستعمار والإمبريالية لسنوات عديدة بعد الاستقلال، وتتغلغل الدول الغربية في المجتمع المغربي بطرق مختلفة. حصلت المغرب على استقلالها عام ١٩٥٦م، لكن هذا الاستقلال صوري ولا يزال الغريبيون يتدخلون في شؤون المغرب. «قامت الحكومة الفرنسية بنفي العائلة الملكية المغاربية أولاً إلى جزيرة كرس في البحر الأبيض المتوسط ثم إلى مدغشقر. وبعد المفاوضات

بين العائلة الملكية والحكومة الفرنسية، والتي لعب فيها الحسن دوراً ناشطاً، أعادت الحكومة الفرنسية العائلة الملكية إلى المغرب العربي. تم تعيين الحسن قائداً لأركان الجيش الملكي وأصبح رسمياً ولي عهد المغرب. تولى والده منصب رئيس الوزراء شخصياً وجعل الحسن نائباً له وبعد وفاة السلطان محمد، أصبح الحسن ملك المغرب فى نفس العام» (كتانى، ٢٠٠٠م: ٤١ و ٤٤) تظهر عملية نقل الحكم فى المغرب تأثير الاستعمار فى هذا البلد؛ وعلى هذا الأساس يكون الملوك مطيعين للغربيين وينفذون خططهم.

وتتجه سياسات الدول العظمى نحو الاستعمار الناعم وتعزيز الثقافة الاستهلاكية الغربية والاعتراق، ويصور بكارى هذه العملية استعارياً فى شكل علاقة جوليا ومراد فى رواية نوميديا. جوليا الفرنسية فى رواية "نوميديا" ممثلة الإمبريالية الفرنسية، تقترب من مراد وهو شخصية إفريقية وعربية بحجة دراسة ثقافة بلاد الشرق، وتحوله إلى الشخصية الرئيسية فى قصتها. ومن وراء هذا التوصيف الأدبي، القصد السياسى هو تضخيم الصفات السيئة لدى العرب وعقدتهم النفسية فى القضايا الجنسية: «قالت يوماً إنها تعكف على انجاز بحث سوسيولوجى حول مفهوم الجنس فى الشرق، رافقتها إلى المكتبة، وطاولت أن أترجم لها بعض الكتابات العربية التى تناولت الموضوع.» (بكارى، ٢٠١٥م: ١٥)

إذن فالاستعمار يبدأ من حالة سفك الدماء إلى حالة الحرب الناعمة وتغيير هوية المغرب والدول العربية. يخدع الغربيون شعب المغرب وحكومته بمظهرهم الأنيق ولغتهم الناعمة، ويستخدمون مختلف الطرق للتسلل إلى هذا البلد وتعزيز أهدافهم الثانوية تحت قناع خادع ويعلنون هدفهم فى التعريف بالمعالم التاريخية والطبيعية والثقافية والاجتماعية للمغرب وإحداث التحول والتقدم فيه. لكن فعلاً، ومن أجل تحقيق أهدافهم الاستعمارية، يحاولون تدمير الثقافة الشرقية العربية للمغرب.

علاقة جوليا بمراد واستغلالها لمودة ومشاعر مراد وثقته تذكرنا بالعلاقة بين المستعمر والمستعمر، وأن المستعمرين ينهبون ويستغلون دول العالم الثالث بذكاء من خلال الصداقة والتفاعل المتبادل: «فى هذه المواجهة الأخيرة، كانت جوليا تحتوى بتاريخها

الذى يشعّ فى شجرة شعرها وإمبرياليّتها المتوارية خلف وشاح العاطفة والمفضوحة فى عينيّ المستعمر والمستعمر على حدّ سواء.» (المصدر نفسه: ٣٩٩)

يظهر بكارى فى شكل رواية نوميديا والعلاقة بين الشخصيات فى روايته، علاقة أوسع على مستوى السياسة الكلية والدولية بين المغرب فى العالم الحقيقى وفرنسا والمستعمرين. يريد بكارى أن يقول للجمهور أن الدول الشرقية لا تزال تحت تأثير المستعمرين ورغم أنها تتمتع بالاستقلال إلا أن هذا الاستقلال شكلى والدول الغربية تلعب دوراً بارزاً فى تحديد سياستها.

وفى مجال السياسة الداخلية، تتعامل حكومة المغرب مع التيارات السياسية الماركسية بالديكتاتورية والقسوة وتعذيبهم وتسجنهم. «فى عهد الحسن، كان الدستور المغربى يعترف بسيادة النظام الديمقراطى، وكان يسمح بتعدد الأحزاب، وتم انشاء البرلمان من اتحاد مجلسين من النواب والمستشارين.» (منصور، ١٩٦٩م: ٢٣٩ و مهابه، ١٩٩٩م: ١٣٢) ومع ذلك، فى النظام الملكى، مثل هذه التغييرات لا تخلق الديمقراطية. «كانت هذه التغييرات أكثر ظاهرية، لأنّ إقالة وتنصيب رئيس الوزراء والوزراء، وكذلك قيادة الجيش، كانت تحت سيطرة الحسن الثانى. ونتيجة لذلك عادت السلطة مرة أخرى إلى يديه وبدأ فى إضعاف خصومه.» (بالتا، ١٣٧٠ش: ١٢٢) فإن الهيئة الحاكمة فقط هى التى تملك سلطة اتخاذ القرارات، ولا يحق للجماعات السياسية الأخرى إدارة البلاد. ونضال هى إحدى المناضلات التى قتل والدها على يد الحكومة وتم سجنها وتعذيبها عدة مرات: «فى قلب المواجهات مع قوى الأمن، كانت عيناها تضجّان غضباً. سمعتُ مراراً أنّ السجن ابتلعها ولفظها.» (بكارى، ٢٠١٥م: ٤٧)

فإن أى احتجاج مدنى يتم الرد عليه بالعنف والقمع والقسوة، ويتم انتهاك الديمقراطية. ولم يقتصر سلوك الحكومة القاسى على النضال، فقد تم اختطاف والدها سراً، وهو أحد المقاتلين القداميين، وقتل عدة أشخاص آخرين بعد التعذيب والسجن، ودفنهم فى مكان مجهول: «كنتُ أريد أن أنتقم لأبى الذى ابتلعه الدهاليز والأقبية المظلمة، أبى الذى اكتشفتُ متأخرة المكان الافتراضى الذى دُفن فيه، هو وبعض رفاقه.» (المصدر نفسه: ١٠٣)

وفى مثل هذا الاختناق لا يسمع صوت إلا صوت الحكومة، وتقمع المطالبة بالحرية بقوة، لكنها لا تسكت، وتفسح حرية التعبير والفكر المجال للسكوت والاستبداد والخوف العام.

إعادة إنتاج المكونات الثقافية المغربية فى رواية نوميديا

فى رواية نوميديا، يتم وصف الثقافة التقليدية التى تحكم المجتمع المغربى، والتى لا تقتصر على القرية بل هى أيضا جريئة فى المدينة. الخرافات والجهل والإتباع الأعمى لبعض الأفكار الفاسدة للأسلاف والدوغمائية والقبول غير المشروط للعادات الثقافية التقليدية هى بعض الأشياء التى ينتقدها بكارى. ومن مظاهر الثقافة التقليدية لإغرميين الإيمان بالآثر السلبى لللعن. أنهم يضحون للموتى من أجل دفع البلاء واللعنة التى يعتبرون مراد مصدرها: «ظلوًا يتوجسون منى خيفة، بل وحسبنى لعنة سلطت عليهم. لذلك أكثروا من تقديم الذبائح لرجال البلاد.» (المصدر نفسه: ٢١٧)

مثل هذه الأفكار الفاسدة تجعل مراد مع صغر سنه يتعرض لضغوط نفسية شديدة ويشعر بالوحدة والغربة، ونتيجة المصير والقدر الجغرافى والاجتماعى، فيقع فى فخ الأوهام والتخلف الفكرى مجموعة مخدوعة ودوغمائية.

الخرافة هى الجانب السلبى فى الثقافة التقليدية المغربية، والتى تنبع من التبعية العمياء للأشخاص الذين يخضعون لهذا التقليد. قام شخص اسمه السفاح الرومى ببناء قلعة على جبل ويقتل كل يوم الكثير من الناس حتى ذات يوم قدم له شيخ القوم ابنه قرباناً ليتوقف عن القتل. وعندما يقطع السفاح رأسه، تنبت شجرة تين من قطرات دمه ويتغير لون ثمرها من الأبيض إلى الأحمر. وهذه القضية تجعل أهل القرية يعتبرونها شجرة ملعونة ويحرمون أكل ثمرها: «سلمت عيسى وتأملت أغرائات شجرة التين اللعنة باهتمام، هنا أسلم سيدى موسى ابنه للسفاح الرومى، وهناك حيث تفتت شجرة الطين طارت دماؤه، وزعموا أنها ولدت من دمه، وأن ما يفسر ذلك هو كون البياض الذى ينفجر من رؤوس حبات التين انقلبت فى هذه الشجرة حمرة، ولذلك حرّموا أكلها! إغرم تؤمن بالحكاية، ومعجزاتها تعيش وفق منطقها، وأهلها يعيشون صخب الحكاية

ويدافعون عنها بما ملكوا.» (المصدر نفسه: ٣١١)

وبين بكارى أن الأغرييين لم يقبلوا هذه القصة إلا بالاعتماد على كلام أسلافهم ودون التفكير فى صحة هذه القصة ومصادقيتها، ويؤمنون بها بطريقة غير عقلانية ومتطرفة، ويختلفون حولها العديد من الأساطير والخرافا.

لا جديد فى مثل هذه الثقافة وكل شىء هو نسخة من أصل الأجداد وسلوكياتهم وعاداتهم وخرافاتهم وهم فى الغالب يعيشون فى الماضى ويضطر الأبناء إلى طاعة آبائهم وتقليدهم وتستمر هذه الأجيال: «يتزوج أقرانى ويصيروا أباء كذلك، هكذا يصبحون امتداداً لآبائهم وربما يفرضون على أبنائهم أن يصيروا مثلهم، أو بالأحرى امتداداً لهم.» (المصدر نفسه: ٦٥)

وفى مثل هذه الثقافة يسود نوع من الديكتاتورية والدوغمائية والتفكير الجاف، حيث تتضاعف ضرورة التفكير النقدى.

تقوم كل التعاملات فى الثقافة المغربية التقليدية على علاقات الدم، ولا يمكن لأى شخص آخر غير الإغرييين أن يتزوجهم، ولا يمكن للغرباء مثل مراد أن يعيش بينهم ويجب أن يغادر لأنه ليس من دمائهم: «لكن خلف كل ما قيل حقيقة مرّة لم تُقل، ربّما كانت هى أول ميت فكر فيه شيوخ القبيلة، إنّها نسل القرية الذى لا ينبغى أن تجانسه دماء طفل مجهول الهوية، ... لا ينبغى أن يظلّ أوداد فى القرية، لكى لا يدنس الدماء النقيّة والمؤحّدة التى تسرى فى شرائين كلّ فرد من أفرادها.» (المصدر نفسه: ٥٠)

فى مثل هذه الكلمات هناك نظرة فاشية وعنصرية مفادها أن الناس تحت تأثير الظاهرية والتقليد الخاطيء للأسلاف، يقسمون الناس إلى مجموعتين، مستحقين وغير مستحقين على أساس الدم والوراثة فقط، ولل؟؟؟ ينتهون لمواهبهم ويرفضونهم ويستخدمون قوتهم القسرية ضدهم.

انعكاس عواقب التطرف الدينى فى المغرب

ويعتبر التطرف الدينى أحد المقولات التاريخية فى المغرب، والذى اشتد فى القرن العشرين، وكانت الجماعات الإسلامية المتطرفة تعاني من صراعات مع الحكومة

المغربية. «شهدت المملكة المغربية منذ ستينيات القرن الماضي صدمات عنيفة ما بين ما يعرف بحركة «الشبيبة الإسلامية» والنظام الملكي أسفرت عن زوال هذه الحركة وميلاد حركتين هما «حركة العدل والإحسان» و «حركة الإصلاح والتجديد». ومع إقرار التعددية الحزبية في المغرب، كان للحركتين المذكورتين حضور ملحوظ في الحياة السياسية المغربية، بيد أنه ونتيجة للتضييق الكبير على التيار الإسلامي في المغرب تم تأسيس ما يسمى بجماعة الشبيبة الإسلامية من قبل مقاتلي حرب أفغانستان من المغاربة بهدف إرساء دعائم الدولة المغربية، ومد يد العون لتنظيم القاعدة محلياً وإقليمياً لظالما أن هذا التنظيم تشكل من مغاربة أفغان يعملون تحت لواء وإشراف زعماء تنظيم القاعدة.» (رتيبة، ٢٠١٢م: ٤٨؛ دريس، ٢٠١٤م: ١٠٤) وتبين هذه القضية السياسة المتناقضة التي تنتهجها الحكومة المغربية تجاه فئة التطرف، إذ رغم علمها بنوع الأنشطة التخريبية التي تمارسها هذه الجماعات، فإنها تستخدمها كأداة لقمع الجماعات المعارضة. وتنمو الجماعات الدينية المتطرفة على نطاق واسع بسبب هذه السياسة الخاطئة والمزدوجة، وتنتشر العقائد الدينية من قبل المبشرين الدينيين تحت تأثير التفسيرات غير الصحيحة للقرآن والنصوص الدينية وتمنحهم الحكومة الحرية لارتكاب العديد من الجرائم بالعنف. يقول مراد «طالعني وجه ملتج. تأملته وهو يتفرّس في وجوه بعض الأجانب بوع من الاستغراب المشوب بالاستهجان، المسكين يبدو مخدّراً، إذ يعتقد أنّ الدين هو أن سبيل المرء لحيته ويبلس البياض ويدعى الورع والتقوى!» (المصدر نفسه: ٣١٤)

وكراهية النساء مقولة أخرى تعكسها رواية نوميديا، وهي متجذرة في الفهم الخاطئ لدى بعض المبشرين الدينيين والتصورات غير الصحيحة، وأحياناً تدخل الآراء الشخصية في الحكم ضد النساء. ويصوّر بكارى على لسان أحد مشايخ الدين العداء والنظرة السلبية لهذه الفئة من المجتمع تجاه المرأة في المجتمع المغربي الذي يعتبر المرأة عوراً وعاراً: «ألمح على صوت أحد الشيوخ. سمعته يصيح في إحدى القنوات بلهجة شديدة لا تخلو من زفرة، وتلك اللحية الحرباء على وجهه تعلو وتحنى كمكينة الغبار، كان يصيح: يد المرأة عورة، شعرها عورة، ووجهها عورة. جسّد المرأة كلّ عورة.»

ومن هذا المنطلق فإن المرأة هي عبدة جنسية وخاضعة للرجل وسبب في تحريضه وإغوائه وإضلاله، وهذا يتناقض مع تعاليم الإسلام والقرآن الذي يؤكد على التوازن في جميع الأمور والحفاظ على قيمة ومكانة المرأة في المجتمع. ولا يقتصر هذا التفكير الخاطئ على هذه الحالة فحسب، بل إنه يدخل الأفكار الهدامة والإرهابية في أذهان بعض الشباب الجاهلين والساذجين، و مما يدفعهم إلى الانضمام إلى الجماعات المتطرفة وارتكاب الجرائم والاغتيالات داخل المغرب والدول الأخرى: «قرأت في إحدى الجرائد ما يلي: تمكنت عناصر الأمن الوطن من تفكيك خلية إرهابية مكونة من أحد عشر فرداً، وقد اعترف بعضهم بأنه تلقى تدريبات نظرية وميدانية بالعراق وأفغانستان ودول مجاورة.» (المصدر نفسه: ٢٠٣)

يدعو بكارى من خلال انتقاده لتشجيع المبشرين الدينيين الشباب للأفكار المتطرفة وترويع الأبرياء إلى ضرورة الابتعاد عن الدوغمائية والدعوة إلى السلام والمراجعة في بعض التعاليم الدينية. إن الحكومة المغربية بسياساتها المتساهلة والمتناقضة تجاه الحركات العنيفة للمتطرفين، توفر الأرضية اللازمة لترويج الإرهاب.

انعكاس المجتمع المغربي المستعمر في رواية نوميديا

في أى مجتمع، يتم قبول بعض السلوكيات والأفعال الجيدة والإيجابية كأعراف أخلاقية واجتماعية. وقد قام بعض الناس بتغيير هذه الأعراف لمصلحتهم عن طريق تضليل واستغلال جهل بعض الناس، فيأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وفي الباطن يفعلون عكس ما يقولون. ورغم أن المغرب بلد ذو ثقافة عربية وإسلامية، إلا أنه يتعد كثيراً من مكونات الثقافة الإسلامية الأصيلة بسبب تأثر الثقافة الغربية. «يستمر الاستعمار في المغرب إلى يومنا هذا سياسياً وتاريخياً وأبرز مظاهره هو اندماج الاقتصاد والمجتمع المغربي في النظام الرأسمالي، وينعكس دوره في استكمال هيكلية الحكومة المغربية وخارطة طريقها في السياسة الخارجية والداخلية.» (مالكي، ١٩٩٣م: ١١) وفي مثل هذه الحالة ينتشر النفاق وتظاهر الخير والخداع والفساد الأخلاقي في المجتمع المغربي. يقود العديد من الشخصيات الدينية في المغرب المجتمع نحو الفسق

من خلال ترويج الظاهرية: «كنتُ الملح أولئك الذين يعظون الناس وينصحونهم نهاراً، وهم سكارى يتقاذفهم الجدران ليلاً، فكيف ينهون عن شيء ويأتون بمثل؟ أى خراء هذا الذى يقبع داخل جامهم! أى روائح للزبل تتبخر من أفواههم الواعظة!» (بكارى، ٢٠١٥م: ١٤٥)

ويتسبب هذا النفاق فى تكوين حالة من السخرية والشك وعدم الثقة فى المجتمع المغربى، وجميعهم يتأثرون بالعناصر الإمبريالية ويحاولون استغلال الآخرين. الخيانة والمصلحة الذاتية والعطف على الأجانب من السلوكيات السيئة الشائعة الأخرى فى المجتمع المغربى التى انتقدها بكارى فى روايته نوميديا. ومثال واضح على هذه القضية هو الدكتور بن هاشم الذى يبيع كل معلومات مراد الشخصية وسيرته ومرضه مقابل مبلغ من المال إلى جوليا: «أزاح القبة ومرّ بيده على صلغته وثرثر بعد ذلك كثيراً، بفرنسيّة فيها الكثير من الرطانة، عن الأخلاق والقيم! لكنّ ما إن وقعتُ شيكاً ووضعتُه على طاولته، حتى ازدرد ريقه وفرش ملفّات مرضاه وشرع فى المساومة كأنّما يبيع الملابس المستعملة.» (المصدر نفسه: ٢٤٩)

يخبر بكارى من خلال وصف سلوك بن هاشم المثير للاشمئزاز الجمهور عن الآثار المدمرة للتفاعل مع العالم الغربى الذى ينفر المغاربة من المكونات الأخلاقية والاجتماعية الإيجابية للثقافة العربية وينشر الاغتراب والمصلحة الذاتية بينهم. يريد بكارى أن يبين أن انتشار انعدام الثقة والخيانة وانتهاك خصوصية المواطنين المغاربة متجذر فى هيمنة النظام الرأسمالى على المجتمعات العربية والسياسات المتناقضة للحكومة ونفاق الزعماء الدينيين.

النتيجة

١. نص رواية نوميديا عبارة عن بنية دلالية تعمل من خلال التعبير عن الصراع وتضارب المصالح بين الطبقات الاجتماعية والصراع بين النظام التقليدى ونظام الحداثة والمعتقدات الاشتراكية وأسس الرأسمالية ونظام الاستبداد الداخلى والانتفاضة الشعبية، وتصور اقتصاد المغرب المستعمر ووضعه الاجتماعى

- والسياسى والثقافى فى العقود الأخيرة فى نص الرواية.
٢. إن نمو الوعى الطبقي فى المجتمع المغربى وتكوين مجموعات مناضلة بين الشرائح المثقفة والماركسية يؤدىان إلى تعارض بين مصالح الفئات المختلفة فى المجتمع والحكومة.
٣. من خلال اعتقال وتعذيب وسجن المتظاهرين، تقوم الديكتاتورية بقمع مطالبهم وأنشطتهم للحرية وتمنع تحقيق الوعى الممكن فى المجتمع المغربى، وبدلاً من ذلك، تعمل الجماعات الدينية المتطرفة على تعزيز الجهل والدوغمائية والعنف والانتحار فى المجتمع مع التنسيق بين الحكومة.
٤. الديمقراطية فى المغرب كذبة جميلة ينساها طغيان الملك واستبداده، كما فى أجواء رواية نوميديا، تهيمن الحكومة بصوتها على الرواية بأكملها، وتخلق الخطابات النقدية بالعنف والإصرار.
٥. اليأس والتشاؤم والشعور بالفشل والخرافة والرضا عن الوضع الاقتصادى السيئ والفقر والعنصرية والتقليد الأعمى للماضى فى رواية نوميديا هو انعكاس للواقع المرير للمجتمع المغربى الذى يتأثر بعوامل خارجية وداخلية كالاستعمار الناعم والتحول الثقافى والاعترا ب، ونمو الأفكار التكفيرية والإرهاب.
٦. رؤية العالم الخفية فى هذه الرواية هى الموقف النقدى والاحتجاجى لقئة من المثقفين اليساريين الذين يتفضون من أجل نيل حقوقهم الاجتماعية، بما فى ذلك حرية الفكر والتعبير، والعدالة الاجتماعية، والتقدم الثقافى والاقتصادى والاجتماعى للمغرب وعدم الاستسلام للأجانب.
٧. يتم التعبير عن رؤية العالم للطبقة المثقفة الماركسية المغربية بمساعدة تصرفات مراد ومصطفى ونضال الذين يؤمن المؤلف بمثلهم العليا، والرسالة الأساسية لهذه الطبقة هى مواجهة النفوذ المتزايد للنظام الرأسمالى فى الدول العربية وتطوير أفكار مناهضة للإمبريالية لتغيير الظروف السائدة على العالم العربى.
٨. يعكس بكارى فى نص روايته التغيرات الواسعة التى طرأت على العالم الواقعى بالمجتمع المغربى على أربعة مستويات سياسية ودينية وثقافية واجتماعية ويمثل

العديد من المجهولات التاريخية بلغة الرواية.

٩. يشير بكارى على المستوى السياسى الدولى إلى علاقة بين جوليا ومراد، ويعتبرها مثالا واضحا على علاقة بين الاستعمار والدول المستعمرة، حيث يدخل المستعمرون إلى هذه الدول بسياسات ديماغوجية وتحت غطاء برامج إصلاحية لتطوير حضارتهم الثقافية والهيمنة الاجتماعية والاقتصادية فى الدول العربية. فإن المستعمرين بنشر التغريب وخلق المنافسة بين الناس يبعدونهم عن الثقافة العربية الأصلية، ويحولونهم بتوسيع سياسات النظام الرأسمالى إلى أشياء يمكن أن يستغل منهم بأى شكل من الأشكال ودون مراعاة لقيمتهم الإنسانية.
١٠. وعلى مستوى السياسة الداخلية، يحكم النظام الملكى والاستبدادى المجتمع المغربى من خلال قمع أى سلوك احتجاجى وتواطؤ مع المتطرفين والخنق والديكتاتورية والظلم، ويتم تجاهل حكم الشعب على الشعب.
١١. وعلى المستوى الدينى، أدى انتشار الأفكار الدينية المتطرفة وانتشار القتل والاعتقال والتخريب من قبل بعض الجماعات المتطرفة تحت تأثير التفسيرات الخاطئة للمبشرين الدينيين وفى ظل صمت الحكومة، إلى تغيير الوضع المغربى. نظرة المجتمع للدين وانتشار نوع من عدم الثقة العامة على مستوى المجتمع تمنعان أى تغيير إيجابى فى المجتمع.
١٢. وعلى مستوى التفاعلات الثقافية، يرى بكارى أن هيمنة الثقافة التقليدية على المجتمع المغربى والدوغمائية والتبعية غير المنطقية للأسلاف هى سبب تخلف المغرب. ويريد من خلال التأكيد على إيجابيات الثقافة التقليدية إزالة بعض العادات القديمة والأفكار الفاسدة التى لا تتسجم مع الأوضاع الراهنة وليس لها نتيجة سوى التخلف.
١٣. وعلى المستوى الاجتماعى فإن الخنق والاستبداد والنفاق والخيانة والنفعية والخدمة الجيدة للأجانب هى أبرز سمات المجتمع المغربى الحالى، وهو ما يتسبب فى اتساع نفوذ المتطرفين فى المغرب وانتشار الفساد الأخلاقى والانفلات فى هذا البلد ويحرمه من التقدم والحرية والضمان الاجتماعى.

المصادر والمراجع

- بالتا، يل. (١٣٧٠ش). مغرب بزرگ از استقلالها تا سال ٢٠٠٠. ترجمه عباس آگاهی. تهران: وزارت امور خارجه، دفتر مطالعات سیاسی و بین المللی.
- بحری، محمد الأمين. (٢٠٠٥م). «رؤية العالم في ذاكرة الجسد». مذكرة ماجستير. جامعة محمد خيضر. بسكرة.
- بکاری، طارق. (٢٠١٥م). نوميديا. ط ١. بيروت: دار الآداب.
- پاسکادی، یون. (١٣٧٦ش). ساخت گرایي تكويني و لوسين گلدمن. مترجم محمد جعفر پوينده. تهران: چشمه.
- جلالی، عيدان و رسول بلاوی و علی خضري. (١٤٠١ش). «دراسة رواية أهل الحميدية لنجيب الكيلاني على ضوء منهج البنيوية التكوينية لغولدمان». بحوث في اللغة العربية. المجلد ١٤. العدد ٢٦. صص ٩٣-١٠٤.
- دريس، باخوية. (٢٠١٤م). «جرائم الإرهاب في دول المغرب العربي، تونس، الجزائر والمغرب أمودجاً». دفاثر السياسة والقانون. العدد ١١. صص ٩٧-١١٤.
- راودراد، اعظم. (١٣٩٤ش). نظريه های جامعه شناسی هنر و ادبيات. چاپ سوم. تهران: انتشارات دانشگاه تهران.
- رتيبة، برباش. (٢٠١٢م). «الأمن والإرهاب في المغرب العربي (مقاربة استراتيجية)». رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في العلوم السياسية والعلاقات الدولية. كلية العلوم السياسية والإعلام. جامعة الجزائر.
- شحيّد، جمال. (١٩٨٢م). في البنيوية التركيبية دراسة في منهج لوسيان غولدمان. ط ١. بيروت: دار بن رشد.
- شميسا، سيروس. (١٣٨٦ش). نقد ادبي. چاپ دوم. تهران: ميثرا.
- العيسوي، إبراهيم (١٩٨٩م)، نحو خريطة طبقية لمصر. الإشكالات النظرية والاقتراب المنهجي من الواقع الطبقي المصري، القاهرة: المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجناائية.
- غازي الجابري، فوزية لعيسوس. (٢٠١١م). التحليل البنيوي للرواية العربية. ط ١. عمان: دار صفاء للنشر والتوزيع.
- غولدمان، لوسيان، باسكاوي، يون، لينهات، جاك، دوبوا، جاك، دوفينو، جان، هيندلس، ر. (١٩٨٦م). البنيوية التكوينية والنقد الأدبي. الطبعة الثانية. مؤسسة الأبحاث العربية.
- غولدمان، لوسيان. (١٩٩٦م). العلوم الانسانية والفلسفة. ترجمة يوسف الأنطاكي. مراجعة محمد البرادة. المجلس الأعلى للثقافة.
- _____ (١٩٨١م). المنهجية في علم الاجتماع الأدبي. ترجمه مصطفى المنشاوي. ط ١.

بيروت: دار الحداثة.

كتاني، محمد. (٢٠٠٠م). شخصية الحسن الثاني: في ابعادها ومناقبها. الدار البيضاء: دار الثقافة.
گلدمن، لوسين. (١٣٨١ش). جامعه، فرهنگ و ادبيات. ترجمه محمد جعفر پوينده. چاپ سوم. تهران: چشمه.

_____ (١٣٧٧ش). درآمدی بر جامعه‌شناسی ادبیات. ترجمه: جعفر پوينده. تهران: چشمه.

_____ (١٣٦٩ش). جامعه‌شناسی ادبیات دفاع از جامعه‌شناسی رمان. ترجمه: محمد جعفر

پوينده. تهران: هوش و ابتکار.

گیدنز، آنتونی. (١٣٩٠ش). جامعه‌شناسی. ترجمه حسن چاوشیان. چاپ چهاردهم. تهران: نی.
لحمدانی، حمید. (١٩٩٠). النقد الروائي والأیدیولوجی. الطبعة الأولى. بيروت: المركز الثقافي العربي.
مالکی، أحمد. (١٩٩٣م). الحركات الوطنية والاستعمار في المغرب العربي. لبنان: مركز دراسات الوحدة العربية.

مکاریک، ایرنا ریما. (١٣٨٤ش). دانشنامه نظریه‌های ادبی معاصر. ترجمه مهران مهاجر و محمد نبوی. تهران: آگه.

منصور، عبد الوهاب بن. (١٩٦٩م). الحسن الثاني: حياته وجهاده ومنجزاته ج ١. الدار البيضاء: المطبعة الملكية.

مهايه، أحمد. (١٩٩٩م). «مستقبل المغرب بعد رحيل الملك حسن». السياسة الدولية. العدد ١٣٨. صص ١٧٣-١٧٧.

الانجليزية

-Goldman, L (1970). Marxisme et sciences humaines, Gallmard.